تاريخ الاستلام: 2019/09/16 تاريخ القبول: 2020/03/04

الجماعة و الدينامية الجماعية من منظور علم النفس العيادي

Group and group Dynamics from the perspective of clinical psychology

د.بن أمسيلي لمية *

ahlem24menasria@gmail.com

جامعة بجاية

(الجزائر)

ملخص:

تمثل الجماعة مجموعة بين-ذاتية و بما أن العائلة هي أولا و قبل كل شيء جماعة ذات خصوصيات سوف نعمد هنا على تقديم ملخص القراءات حول مفهوم الجماعة و الدينامية الجماعية و ذلك بتقديم ملخص الأدبيات حول هذا المفهوم الدينامية الجماعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بصفة عامة وفي علم النفس العيادي بصفة خاصة.

كلمات مفتاحية: الجماعة،الدينامية الجماعية، علم النفس العيادي.

Abstract:

The group is a self-made group, and since the family is first and foremost a private group, we will be here to present a summary of the readings on the concept of the group and the collective dynamism by presenting a summary of the literature on this concept of collective dynamism in the humanities in general and in mainstream.

Keywords: Group, dynamics group, clinical psychology

المؤلف المرسل: بن أمسيلي لمية ، **الإيميل:** haderbache.lamia@gmail.com

1. مقدمة:

تمثل الجماعة مجموعة بين-ذاتية و بما أن العائلة هي أولا و قبل كل شيء جماعة ذات خصوصيات سوف نعمد هنا على تقديم ملخص القراءات حول مفهوم الجماعة و الدينامية الجماعية و ذلك بغية توضيح هذه المفاهيم في تخصص علم النفس العيادي.

سوف نتناول في هذا المقال نقطتين أساسيتين. تخص الأولى مفهوم الجماعة و تقدم ملخص الأدبيات حول هذا المفهوم في العلوم الإنسانية و الاجتماعية بصفة عامة و في علم النفس العيادي بصفة خاصة. أما الثانية تتطرق إلى الدينامية الجماعة، مفهومها و عناصرها التي توفر لنا مفاهيم و مؤشرات ضرورية لتناول الدينامية الجماعية من منظور التحليل النفسي الجماعي.

2- الجماعة

يؤكد بوقام (Paugam) أن « مفهوم "الفهم" هو مركزي بالنسبة للعلوم الإنسانية و الاجتماعية ». (Paugam, 2010, p.8) و في هذا الصدد ما يهمنا نحن كباحثين في علم النفس العيادي و في إطار هذه المذكرة، هو التناول العيادي للجماعة و لكن نعترف بثقل علم النفس الاجتماعي في تناول و فهم مثل هذا المفهوم. لذلك قررنا عرض التنظير التحليلي النفسي للجماعة و الدينامية الجماعية بالتفصيل حيث نعتبر أنه من الممكن فهم الوضعيات التي ميزت تاريخ الجزائر المستقلة و بالخصوص تاريخ منطقة القبائل باللجوء إلى مثل هذا التنظير. كما نهتم بهذين المفهومين (الجماعة و الدينامية الجماعية) لأن و كما ينصه بيون (Bion) (1965- 2009) أنه هنالك « نوع من التشابه ما بين الجماعة و الجماعة العائلية و أن التفكير الفرويدي الذي ينص أن الجماعة العائلية هي النموذج الأصلي لكل الجماعات الأخرى لا يخلو من الركيزة. » (Bion, 2009, pp.124-129)

1- تطور مفهوم الجماعة عبر التاريخ

ما يهمنا في هذه النقطة هو التذكير بأهم المحطات التاريخية التي ميزت نشأة و تطور الاهتمام بالجماعة في العلوم الإنسانية و الاجتماعية بصفة عامة و في علم النفس العيادي بصفة خاصة. فيكتب أنزيو ومارتين (Anzieu et Martin) (1968- 2013) أن «كلمة "الجماعة" حديثة النشأة أتت من إيطاليا و بالضبط من عالم الفنون الجميلة، ثم فرضت نفسها في اللغة ك "مجموعة من الأشخاص" بعد قرن من ذلك. » (Anzieu & Martin, 2013, p.8) في حين نجد أصول تحليل الجماعة عند كل من لوبون (Le Bon) ، فرويد (Freud)، غايش (Reich) ، جونغ (Jung) ،بورو (Burrow)، لوين (Lewin) ، مورينو (Moreno) ، بالينت (Balint) ثم المؤسسين و هم بيون(Bion) و فولكس (Foulkes)(بريطانيا) و بعد ذلك بيشون غيفيير (Pichon-Riviere) و بليجير(Bleger) (أرجنتين) و أخيرا اختراع تحليل الجماعة في فرنسا على يد انزيو (Anzieu) و قايس (Kaes). (Lecourt, 2008)

كما يظهر لنا من المهم إلقاء نظرة عما يسود الجماعة في العلوم الاجتماعية أولا و قبل كل شيء. يميز قايس (Kaes) (2006) ثلاثة منابع للجماعة :

- « المنبع الأول هو ديني و يمثل سند للإحساس بالانتماء. كما يضمن الوظائف الابتدائية و العلاجية للجماعة التي تعمل على جمع الجماعة، و شد الروابط، ربط بين الأعضاء المتشتتة، توحيدهم في داخل أنفسهم، عن طريق تقمص الشكل الإلهي.
- المنبع الثاني هو اجتماعي، اقتصادي، و سياسي. فالجماعة هي إحدى عناصر التنظيم الاجتماعي و لديه دور في نشاطات التوازن و التحويل الذي يمس الجسد و الهيئة الاجتماعية.
- المنبع الثالث هو نفسي-اجتماعي. فالجماعة هي وسيلة التنشئة الاجتماعية في حد أين تضمن الاستمرارية و العبور من ما هو ابتدائي (العائلة) و الجماعات الثانوية (جماعة الزملاء، جماعة التعلم).» (Kaes, 2006, p.220)

و من بين النظريات التي تناولت الجماعة في العلوم الاجتماعية تناولا عياديا. نذكر « المسعى السلوكي الذي يتضمن النموذج الوظيفي الذي يتناول الجماعة ك "نسق وظيفي تواقفي " و يقترح تعريف إجرائي لمفهوم الجماعة الذي ينص أنه لا وجود لهذه الأخيرة إلا إذا

كانت هناك مجموعة الأفراد ينجزون أحسن من الذي ينجزونه أو يرغبون فيه بطريقة فردية. في حين أن النموذج البنيوي يعارض النموذج الوظيفي ويتناول الجماعة كبنية ويعطي أهمية للتنظيم المستمر للظواهر أين الجوانب تكون مرتبطة فيما بينها عن طريق قوانين التركيب و مبادئ التحويل. ومنها تظهر النظرية الشكلية وتناول دينامية الجماعة الذي أدخله لوين (Lewin) و الذي يصبح البؤرة الخصبة للاتصال، التماسك، التناسق، الانسجام، و الانحراف حول معايير الجماعة والتأثير الاجتماعي. أما النموذج الجدلي (المنطقي) يرجع إلى حركة التعارض و التكامل ما بين العنصر و المجموعة. و بعيدا عن ما سبق نذكر ممارسات مورينو (Moreno) في (1954) تعطي الأهمية للفعل كعامل للتحويل و هذا ما يعرف بالنموذج الفعلي في علاقة وطيدة بالقياس الاجتماعي و السوسيومتري. » (Kaes, 2006, pp.221-222)

و لكن من الواضح أن هذه النماذج المتمثلة في التناول الايجابي، السلوكي، الوظيفي، و البنيوي لا تخدمنا و لا تخدم بحثنا هذا لأنها لا تعطي مكانة للفرد في الجماعة و لكن بالعكس يظهر كعنصر خاضع في نماذج مجردة من علم النفس الفردي، و ذلك على خلاف النماذج الأخرى التي تبدوا لنا أكثر اهتماما بالفرد داخل الجماعة باعتباره كعضو نشيط و فعال ألا و هي النماذج الجدلية (المنطقية)، الظواهرية و التحليلة- النفسية التي تركز على الفرد في الجماعة، و لكن نعترف أن النماذج الأولى المذكورة ساهمت في إعطاء للجماعة كيان نفسي خاص ذات قوانين تنظيمية و محتوى نفسي.

إن الاهتمام بالجماعة من طرف العلوم الإنسانية « مرتبط بشدة مع المكونات المختلفة لأزمة العالم المعاصر. ففترات الاضطراب الاجتماعي و الثقافي تتميز باختلال في الضمانات الميتا- اجتماعية والميتا- نفسية، و ذلك عن طريق تشويش في وظائف التأطير، الاعتقادات المشتركة، و التصورات الموحدة كما يؤدي ذلك إلى المساس بقواعد النظام الرمزي، فيستبدل القانون الذي ينظم العيش معا بالفوضى. » (Kaes, 1999, p.3)

يعتبر بذلك تفكير الجماعة بالنسبة للعالم النفساني « تمرين محفوف بالمخاطر و ذلك لسببين : يخص أولهما فعل أن فهم الظواهر الجماعية يدعو تخصصات مختلفة مثل علم الإنسان، علم الاجتماع، علم السلوك، و حتى التناولات الثقافية و الجغرافية- السياسية و هذا ما يجعل الحوار صعب ما بين هذه الفروع المختلفة. يرجع العامل الثاني إلى السبب العيادي الذي يتمثل في كون النفساني الذي يخدم الجماعة يمكنه أن يلجأ إلى الاستماع الجماعي على حساب الأفراد. » (Robert, 2014, p.10)

ففي هذا النطاق، لقد اهتم علم الإنسان بموضوع الجماعة. ففي هذا التخصص نذكر كل من ليفي-ستروس(Lévi- Strauss 1952-1987) و باتيزون (Bateson). فالأول يؤكد أن « الإنسانية تتوقف عند حدود القبيلة، الجماعة اللغوية، أحيانا عند القرية، إلى حد أن عدد كبير من الشعوب المسماة بالبدائية تعرف نفسها باسم معناه الرجال » . (Lév-Strauss, 1987, p.21) في حين الثاني « أبدع "فيما يسمى بـ"ميتا- اتصال" و أثر على أعمال المنسقين. » (Robert, 2014, p.20)

إن علم الحيوان يهتم بسلوك هذا الأخير، و لقد أظهرت العديد من البحوث « كيف سلوكات الحيوانات تتكيف وتتغير في الجماعة و هذا ما يدل على قوة الجماعة عند الكائنات الحية. كما اهتم علم النفس الاجتماعي بمسألة الانسجام في الجماعة و إبراز أهمية الظرف و قوة التأثير و الإقناع و تبين أن الفرد يمكنه أن يفقد قدرته على الحكم لما يكون خاضع لسلطة لا يمكنه أن يعارضها. و اهتم أيضا بالجماعة التيار النسقي الذي درس النسق و مجموع الأنساق في تفاعلاتهم الخاصة و تفاعلاتهم مع الأنساق الأخرى ». (Robert, 2014, pp.20-23). و هكذا برزت في علم النفس« أراضي لا بد من اكتشافها و استكشافها ثم استثمارها في منظور بحث. » (Doron, 2003, p.1)

و لكن رغم ما ذكر فيما سبق من صعوبات إلا أنه الجماعة أصبحت « مفهوم موضة ككيان علاجي في السنوات الثلاثين. » (Guimon & Weber-Rouget, 2002, p.VII) و ذلك خاصة على« يد مورينو (Moreno) الذي يصف الجماعة ككيان لديه بنية شكلية و قاعدة لا شعورية. » (Delourme & Edmond 2004, p.257)

و لقد لقي الاهتمام بموضوع الجماعة و الفرد في الجماعة «نوع من المقاومة من طرف المحليلين النفسانيين، و إلى يومنا هذا تثير مسألة الجماعة، الصمت، التحفظات، و الاستنكار. » (Kaes, 2010, p.XII) بحيث لا بد من التذكير أن هنالك «نقد شديد ضد أنزيو (Anzieu) من طرف زملائه بسبب اهتمامه بالجماعة و كان يتهم بتضليل التحليل النفسي. » (Kaes, 2015, p.43) و تطبيق التحليل النفسي «كنموذج على الحقل الاجتماعي لا يخلو من التساؤلات. » (Chapelier, 2000, p.31) و كما يظهر أنه «ليس من المنطقي ربط الجماعة بالتحليل النفسي. » (Robert, 2014, p.10) و ذلك لأن «تمديد التحليل النفسي و منهجه العيادي لظاهرة المجتمع ليس من السهل. » (Duparc, 2004, p.3) و تخلق « الجماعة مشاكل منهجية » (Chapelier, 2015, p.31) هذا ما يؤدي إلى أنواع مختلفة من الخوف و الحذر تجاه الجماعة لأنه «أولا يخص جرح نرجسي و ثانيا لأن حالة الجماعة تبعث إلى استثارة تتمثل في هوامات المشهد البدائي الفوضوي و الخوف الثالث يخص كون الجماعة تحفز النكوص إلى الحشد البدائي و إسقاط هوام العظمة في جماعة تدرك كأنها بدون إيمان و لا قانون. » (Robert, 2014, p.11)

و لكن اهتم التحليل النفسي بمسألة الجماعة و أن هذا الاهتمام يزداد يوم بعد يوم. و كما سوف نرى أنه لا يوجد هناك انقطاع إبستيمولوجي ما بين الفردي و الجماعي في التيار التحليل النفسي. و في هذا النطاق يكتب لاقاش (Lagache) (1949- 2013) ما يلي « إن إمكانية الدراسة العيادية للجماعات الإنسانية لا ترفع اعتراضات، فملاحظة الجماعة هي نفسها الحالة الفردية و لكنها تبين إمكانية تمديد المنهج العيادي ». (Lagache, 2013, p.50) فبالتالي فالاهتمام بالجماعة في حقل التحليل النفسي كان « شريك الاضطرابات الكبرى التي ميزت مراحل الكارثة الاجتماعية للجزء الأول من القرن العشرين. و عرف التنظير التحليلي النفسي تطورا جديدا في بداية سنوات الستينات و ذلك بعد أن اتضحت تدريجيا المنهجية المطبقة لمثل هذه المواضيع. كما أن هذا النشاط رافق الحركة الاجتماعية للتصنيع و التنمية، و يتبع اضطراب المراجع الكبرى الميتا- النفسية و الميتا- اجتماعية التي تحكم الروابط البين-ذاتية في العلاقات العائلية و الجماعية. » (Kaes, 1999, p.5) .

فاهتمام التحليل النفسي بالجماعة يرجع « أولا إلى اهتمام فرويد (Freud) بالحركة العنيفة التي هزت جماعته بسبب الثورة النفسية و الثقافية التي كان يقودها. » (Kaes, 1999, p.6) ثم يليه كل من« بيون (Bion) و فولكس (Foulkes) كل واحد في حساسية مختلفة ساهما في بناء مصطلحات جديدة لتفكير الجماعة ككيان نفسي خاص. » (Kaes, 2010, p.4)

و لكن في وقت ما كانت المؤسسة للتنظير التحليلي النفسي للجماعة « في السنوات الأربعينيات خلال محاولة علاج بعض الأمراض الحادة في إنجلترا. كما استعمل في بداية سنوات الأربعينيات جهاز الجماعة من قبل المحللين النفسانيين لمعالجة بعض المفحوصين الذين يعانون من أمراض حادة، مزمنة، أو حالية مثل الصدمات النفسية. » (Kaes, 2010, p.6) و ذلك لأنه كان لابد« الانتظار أن يكون التحليل لديه قواعد قوية حتى تتجرا مواجهة أشكال جديدة لعم النفس المرضي و تهتم بالحاوي، الأطفال، الذهانيين، الحالات الحدية، الجماعات و أخيرا العائلات. » (Houzel, 2003, p.44)

إن مفهوم الجماعة كموضوع تم تقديمه من « طرف بونتاليس (Pontalis) في سنة 1963 و لكن نعترف أنه سبقته أعمال عديدة و تبعته أيضا إنجازات كثيرة التي تتناول الجماعة من منظور التحليلي النفسي » (Kaes, 2010, p.15). و ربما من بين المحللين الذين قدموا « منذ 1970 الكثير للدراسة التحليلية النفسية للجماعة نجد أنزيو (Anzieu) لاسيما تلك الصرامة النظرية » (Maisonneuve, 2000, p.320)

نخلص مما سبق ذكره أن التناول النفسي للجماعة نجده عند أمثال فرويد (Freud) (1912، 1921، 1929، 1939) و ذلك قبل و بعد الحرب العالمية الأولى، بيون (Bion) (1961)، فولكس (Foulkes) و غيكمان و ايزغيال (Rickman et Ezriel) (1964)، المدرسة الفرنسية بمختلف روادها، و إلى حد ما إسهام باحثين من الأرجنتين لاسيما بيشون-غيفيير (Pichon-Rivière) بفضل تناوله النفسي- الاجتماعي (1971) و بليجر (Bleger) (1971) حول المؤانسة. إضافة إلى البحوث العديدة في ايطاليا في

بداية السنوات الستينات و لا ننسى مساهمات محللين نفسانيون من أمريكا اللاتينية و بالخصوص الأرجنتين و الذين حاولوا وضع همزة وصل« ما بين التحليل النفسي من جهة و الجماعات المأخوذة في ظرف اجتماعي-ثقافي معين من جهة أخرى و ايجاد المفاهيم اللازمة من اجل تفكير العنف الاجتماعي و الجماعي » (Puget, 2000, p.344) كما نذكر أيضا « إسهامات لاكان (Lacan) في تناول الظواهر الجماعية من قبل التحليل النفسي و نذكر على سبيل المثال نظريته حول الخطابات (théorie des discours) التي جاءت ببعض العناصر النظرية التي من شأنها تحفيز مثل هذه البحوث. » (Chemama & Vandermersch, 2009, p.465)

و يشهد التاريخ بعمل هؤلاء المحللين النفسانيين الفرنسيين و بالخصوص ما يسميه قايس (Kaes) (2015) تمديد التحليل النفسي و ذلك عبر إطار نظري جديد حديث النشأة و الذي هو عرضة لعراقيل و مقاومات. فهذا المعجم هو الذي يخدم موضوع بحثنا حيث يوفر لنا المفاهيم النظرية اللازمة لتفكير إشكاليتنا و التي يعود إليها قايس (Kaes) (2016) في النقطة الثانية التي تتناول الإطار النظري و المنهجي للبحوث التحليلية النفسية للجماعة في الجانب الأول لآخر كتاب له تحت عنوان « L'idéologie ». و هكذا «حدث ميلاد التحليل النفسي التطبيقي الذي يدل على التحليل النفسي لما يطبق معرفته النظرية و منهجيته على مواضيع خارجية عن حقل العلاج مثل السياسة. » (Chemama & Vandermersch, 2009, p.449)

و هكذا يملك التحليل النفسي اليوم الأدوات التي تسمح بتحليل توعك الثقافة و المعاناة النفسية من الأصل الاجتماعي، تتمثل هذه الوسائل في مصطلحات ميتا بسيكولوجية و هي تعدد فضاءات الواقع النفسي، مستوى الميتا للتحليل، مفهوم الضامن، الضمانات الميتا-سوسيولوجية، الضمانات الميتا-بسيكولوجية، التحالفات اللاشعورية و نموذج الجهاز النفسي الجماعي .(Kaes, 2015)

2- مفهوم الجماعة

2-1- التعريف اللغوي للجماعة

إن الجماعة كلمة حديثة ترجع إلى القرن السابع عشر. فحسب القاموس الفرنسي Le Petit Robert (2016) إنها « اسم مذكر ظهر سنة 1668 و هو ينبع من كلمة إيطالية De GRUPPO و يعني "عقدة و جمع". كما ينبثق من كلمة De KRUPPA التي تعني "كتلة مدورة". » (Le Petit Robert, 2016, p.205)

تعتبر كلمة "الجماعة"« إحدى الكلمات ذات الظهور المتأخر جدا في اللغات الغربية. فهي كلمة ضمن معجم الفنون الجميلة و نقل من ايطاليا إلى فرنسا في أخر القرن السابع عشر. » (Anzieu, 1984, p.48)

إن استعمال كلمة "الجماعة" للدلالة على « مجموعة من العناصر حديث نوع ما بحيث نجد أن استعمال هذا اللفظ للإشارة إلى مجموعة من الأشياء و أيضا تجمع من الأشخاص يعود إلى أواسط القرن الثامن عشر. فالمعنى الأول للفظ "الجماعة" هو "عقدة" و هذا المعنى الذي بقي في الاستعمال الحالي يدل على تماسك الجماعة. » (Neri, 2011, p.237)

إن كلمة "عقدة" تشير إلى الطابع التفاعلي للجماعة. في حين كلمة "جمع" تعطي لمفهوم الجماعة طابع موحد و دينامي. في حين عبارة "كتلة مدورة" تدل على الطابع الغامض والموحد للجماعة. فنخلص أن الجماعة تبعث إلى مفهوم الرابط الداخلي (العقدة) في مجموعة موحدة، و دينامية (جمع) و هو مجموعة صعبة التعريف انطلاقا من العناصر المركبة لها (الكتلة) و لكنها تميل إلى انسجام و تناسق شكلي (مدورة). أما المعجم عربي-عربي المسمى بمعجم المعاني الجامع فإنه يعرف الجماعة كما يلي :

«**جماعة (اسم مؤنث)** :

الجَمَاعَةُ: العَددُ الكثير من الناس و الشَّجر و النباتِ

الجَمَاعَةُ :طائفةٌ من النَّاس يَجْمعُها غرضٌ واحدٌ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَمِ الْقَاصِيَةَ

اِلْتَفَتْ **جَمَاعَةٌ** مِنَ الرِّجَالِ: فِرْقَةٌ، مَجْمُوعَةٌ، زُمْرَةٌ، طَائِفَةٌ

وَصَلُوا **جَمَاعَاتٍ** وَأَفْرَاداً: زُمَراً، أَيْ بِأَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ كَمَا تَرِدُ فِي غَيْرِ النَّاسِ، **جَمَاعَةُ** الحَيَوَانِ **جَمَاعَةُ** النَّحْلِ **جَمَاعَةُ** الشَّجَرِ **جَمَاعَةُ** النَّبَاتِ

جماعة الرَّجُل: زوجه.

جماعات الضَّغط: منظَّمات تضمّ مجموعات من الناس ذات مصالح مشتركة، تمارس نشاطًا سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا بقصد التأثير المباشر أو غير المباشر على سلطة اتِّخاذ القرار. » (معجم المعاني الجامع، 2015، ص. 205) في حين يعرف لفظ الجماعة القاموس العربي المسمى بقاموس المعجم الوسيط (2008) "الجماعة" كما يلي: « الجَمَاعَةُ: العَددُ الكثير من الناس والشَّجر و النبات. و الجَمَاعَةُ طائفةٌ من النَّاس يَجْمعُها غرضٌ واحدٌ » . (المعجم الوسيط، 2008، ص.140)

فنخلص أن الجماعة لغويا تعني الاجتماع الإنساني و تشير إلى طائفة و فرقة من الناس ذات غايات مشتركة. سوف نتطرق الآن إلى التعريف الاصطلاحي لهذا المفهوم.

2-2- التعريف الاصطلاحي للجماعة

نستعين في هذه النقطة بوجهتي نظر الخاصة بعلم النفس الاجتماعي و بالتحليل النفسي و ذلك وفق الترتيب الخاص بأهميتهما في بحثنا. سوف نبدأ إذن بالتناول النفسي- الاجتماعي ثم التناول التحليلي النفسي و لا بد من التذكير أننا لسنا في مسعى إدماجي و إنما في مسعى تحليلي-نفسي الذي يحتفظ بإمكانية و ضرورة التفتح و الحوار مع التخصصات الأخرى. في هذا الصدد تعرف الجماعة في علم النفس الاجتماعي ك « مجموعة صغيرة من الأفراد في وضعية وجها لوجه الذين يتفاعلون من أجل تحقيق مهمة أو إشباع غايات مشتركة. » (Cerclé & Somat, 2005, p.24)

و نعني هنا بالتفاعل « العلاقات المتبادلة بين الأفراد و بالتالي يشكل التفاعل العلاقة الاجتماعية الأساسية. » (Montoussé & Renouard, 2006, p.52) و نتحدث عن التفاعلية « للإشارة إلى مجموعة التيارات الاجتماعية التي تفضل دراسة العلاقات البين-الفردية كأساس و مبدأ تفسيري لبناء الجماعات. » (Ferréol et al, 2009, p.97)

يرى ميزونوف (Maisonneuve) (2014) أن الجماعة « لا تعرف بالقرب البسيط أو التشابه البسيط ما بين أعضائها و لكن كمجموعة أشخاص مترابطة فيما بينها ». (Maisonneuve, 2014, p.9) و يضيف أنه يمكننا اعتبار الجماعة ك « نسق مصغر نفسي- اجتماعي يقع في إطار مادي و ثقافي.» (Maisonneuve, 2014, p.41)

و يواصل في نفس الفكرة مارك و بونال (Marc et Bonnal) (2014) بالقول « إن الجماعة ليست كيان ثابت و إنما هو منشط بحركات نابعة من الأهداف المتبعة، توظيفه، و حياته بحد ذاتها ». (Marc & Bonnal, 2014, p.103) و يضيفان « إن الجماعة كل دينامي و حيوي ». (Marc & Bonnal, 2014, p.75)

و يواصل في هذا الصدد ميشيلي (Mucchielli) (2015) بالقول أن الجماعة هي « واقع في حد ما إذا كان تفاعل بين الأشخاص، حياة وجدانية مشتركة، و مشاركة من الجميع و ذلك حتى إن كان هذا المطلب الجماعي غير شعوري و حتى إن لم يتم التعبير عنه من قبل أي تنظيم رسمي. » (Mucchielli, 2015, p.104)

تمثل الجماعة « مجموعة متباينة من الأشخاص الذين يتبادلون التأثير و يكونون كيانا عضويا قادرا على تحديد تصرف الأفراد الذين يؤلفونه. » (Bassand, 1980, p.235) و عرفت أيضا ك « مجموعة من الكائنات البشرية في علاقات متبادلة. و يشترك الأفراد الذين يكونونها في العلاقات، الاتصالات، التفاعلات، تنظيم في المصالح، أهداف، معايير، قيم، و لغة ». (Ey, 1989 , p.1010) و يسمي فرويد (Freud) جماعة نفسية « مجموعة من العناصر (الخلايا العصبية، التصورات، الوجدانات، النزوات...) المرتبطة فيما بينها عن طريق الاستثمارات المتبادلة مكونين بذلك نوع من الكتلة و بالاشتغال كجذابين للارتباط. فالجماعة النفسية تتميز بقوى و مبادئ التنظيم خاصة » . (Kaes, 1999, p.18)

في حين يعتبر أنزيو (Anzieu) (1981) الجماعة ك « غلاف يعمل على تماسك مجموعة من الأفراد ببعضهما البعض. ومادام هذا

الغلاف غير مركب، فإنه هناك مجموع بشري و ليس جماعة. » (Anzieu, 1981, p.1) و يؤكد أنه « توجد جماعة وليس فقط جمع من الأفراد، لما و انطلاقا من أجهزتهم النفسية الفردية، يميل إلى تكوين جهاز نفسي جماعي مستقل نوع ما. » (Anzieu, 2010, p.1) و من جهته يعرف قايس (Kaes) (2006) الجماعة ك «مجموعة نفسية مستقلة و متناسقة و مكان خاص لدينامية هيكلية و بناءة". (Kaes, 2006, p.224) و يضيف أن الجماعة تشير إلى « الشكل، السيرورة، و بنية التنظيم النفسي للروابط البين-شخصية التي تعقد من طرف أفراد مرتبطين بينهم و في المجموعة التي يكونونها تحت تأثير رغبات و دفاعات لاشعورية. » (Kaes, 2006, p.230) و يعتقد فيما يخص الجماعة الاجتماعية ما يلي « إنه نتيجة عمل بناء وبناء في حد ذاته لتنظيم علائقي (المؤانسة) و تعبيري (ثقافة) للحصول على إشباع الحاجات و تحقيق رغبات خاصة ». (Kaes, 2010, p.190) فيشير مفهوم الجماعة (الاجتماعية) إلى « مجموعة من الأشخاص تتحلى في نفس الوقت بخصوصيات مشتركة (مثل الاقتصادية) وشعور بالانتماء الجماعي ». (Lebaron, 2009, p.64)، و الجماعة هي « محافظة مختلفة عن المجتمع العام. فالجماعة الاجتماعية هي تجمع أفراد يشتركون في نشاطات، مزايا، قيم سياسية، فلسفية، جنسية، و لتواجد هذا النوع من الجماعة لابد من التفاهم بين الأعضاء. » (Mariette, 2004, p. 143)، كما تدل الجماعة على «كل دينامي. » (Weil-Barais & Cupa, 2008, p.38) و « تستجيب الجماعة ككل و ليس فقط كمجموع أعضائها. » (Foulkes, 2004, p.49) و هكذا لابد من تناول الجماعة « كمكان سند يسمح بفهم السيرورات انطلاقا من العالم النفسي الداخلي و ليس فقط إشكالية سوسيولوجية أو نفسية-اجتماعية فلابد استدعاء الروابط الداخلية التي تظهر على شكل الروابط البين-ذاتية». (Chapelier, 2000, p.XI)

نخلص من هذه التعاريف النابعة من التحليل النفسي و علم النفس الاجتماعي أن الجماعة تتحلى بفضاء تحليلي ذات مظهر حاوي داخلي و لتفكير الجماعة لا بد من معرفة الحدود الداخلية و الخارجية لها. فالجماعة هي وسيط ما بين العالم الخارجي و العالم الداخلي و ما بين الواقع النفسي و الواقع الاجتماعي. كما نخلص أن الجماعة هي جماعة من الأفراد يتفاعلون فيما بينهم و يتابعون هدفا مشتركا و ذلك طبقا لمعايير تنص عليها مدارس مختلفة و التي سوف نقدمها في النقطة الموالية. فإن الجماعة ليست مجرد مجموعة أفراد، فهي كل أكثر منها تجمع تتسم بطابعها الحركي. كما نستنتج مما سبق عرضه أن الجماعة تمثل شكل و بنية نموذجية لتنظيم الروابط البين-الذاتية. لقد قدمنا في هذه النقطة عدة تعاريف اصطلاحية لمفهوم الجماعة و ذلك لأنه معقد في طبيعته و تعريفه لأن له أبعاده البنيوية و النفسية، و أن كل ظاهرة جماعية تبدو « مرتبطة بقوة خاصة ألا و هي الدينامية. » (Maisonneuve, 2014, p.4)) و سوف نتطرق إلى هذا المفهوم لاحقا في هذا المقال.

2- الوظائف النفسية للجماعة حسب النماذج المختلفة

4-1- المنظور الوظيفي

يتحدث النموذج الوظيفي على وظائف القائد (الزعيم)، القيادة (الزعامة)، و الوظائف (phoriques) إضافة إلى وظائف المثالية، و نرجسية الاختلافات الصغرى. و نظيف كذلك وظائف الاعتقادات، و الوهم الجماعي، وظائف الميتا- دفاعية، و الغلاف الجماعي و أخيرا وظائف التصور و الأنظمة المترجمة.

حسب المنظور الوظيفي، يتمثل دور القائد « أولا في مواجهة وإشباع الحاجات الأساسية لأعضاء الجماعة، ضمان تنظيم سيرورة الجماعة، وخاصة الاتصال الجيد، تعديل الأماكن في الجماعة، تسيير و التحكيم في الصراعات، و تناسق الجماعة. في حين تختلف نظرة التحليل النفسي حول القائد. فيمثل هذا الأخير أولا أجزاء من الذات التي تخلى عنها أعضاء الجماعة لتعويضها بكمية معينة من التشكيلات النفسية مشتركة مع الأعضاء الأخرى للجماعة : جزء من تقمصاتهم و تمثلياتهم الشخصية، جهازهم الخاص في الحماية و التنظيم الداخلي، الوعد في تحقيق رغباتهم اللاشعورية. » (Kaes, 1999, pp.46-47)

إن المثلنة تحمي من « النقص و اللامبالاة، من التبعية و المعاناة، أما نرجسية الاختلافات الصغرى تخص النزعة التي تجعل الفرد يميز نفسه

عن الأخر، تحقيق الذات، و محاربة عند الأخر تعبيراتهم النرجسية و اعتبار جماعته (العائلة، المؤسسة، و الأمة) أعلى عن جماعة الأخر. » (Kaes, 1999, pp.47-48). فنرجسية الاختلافات الصغرى تخص إذن « الكراهية والحسد بين الأشقاء و الصراعات المتفاقمة ما بين الذين يتشابهون أكثر و الاختلاف الصغير يكون مستثمر بالإفراط و تجعل من المماثل العدو المتصلب و الوحشي. » (Bourdin, 2007, pp.129-130)

من بين الوظائف التي تضمن تناسق و هوية الجماعة نذكر الاعتقاد الذي يستند على« وظيفة المثالية و تتضمن بعد نرجسي. في حين نعني ب "الوهم الجماعي" حالة نفسية جماعية التي يصيغها أعضاء الجماعة كما يلي : نحن بخير معا، نكون جماعة جيدة. » (Anzieu, 1998, p.87). ترجع نشأة هذا المصطلح إلى « سنة 1971 من قبل أنزيو (Anzieu) و يسجل نفسه في خط التفكير التحليل النفسي ل فرويد (Freud) حول الحياة الثقافية و الاجتماعية الذي وصف في كتابه « Totem et tabou » (1912) في المبحث الثاني الوهم الفني، الوهم الديني، الوهم الفلسفي، ثم واصل عمله في المبحث الخامس من كتابه « psychologie collective et analyse du moi»(1921) أين وضح "الدور الملتحم للوهم، الذي يعني أن القائد يحب بحب متساوي كل أعضاء الجماعة الذين بدورهم يحبون بعضهم البعض كإخوة، و هذا ما سمح لفرويد (Freud) اكتشاف الهيئة النفسية، مثالية الأنا. و بعد ذلك استعمل وينيكوت (Winnicott) (1953) لفظ الوهم في ظرف أخر خاص بالنشأة النفسية للطفل، و ذلك باكتشاف أهمية الموضوع الانتقالي عند الصغير و توضيح أهمية " منطقة الوهم" أو "فضاء محتمل" لتطور اللعب، الإبداع، للتجربة الثقافية. » (Anzieu, 1971, pp.73-84)

و بالتالي نلخص بالقول إن « الوهم الجماعي يظهر في الوقت الثاني لتطور الجماعة، بعد مرحلة أولى يهيمن فيها القلق المضطهد. فهي مرحلة ضرورية ولكنها مغتربة ومؤسسة للنرجسية الجماعية. و في المؤسسات الاجتماعية، فإن محاولة تشكيل جماعات صغيرة عفوية هي عادة تعويضات لتحرير من الوهم و الخيبة المؤسساتية. كما يعد الوهم الجماعي دفاع هوسي خفيف جماعية ضد القلق، التفكك و الاضطهاد » (Anzieu, 1971, pp.78-84)

و لا بد من تمييز بين الوهم الجماعي و الخيال الجماعي (imaginaire groupal) الذي يبعث إلى «تظاهرة الهوام اللاشعوري و تتمثل وظيفتها في التصور و تعتبر عامل التبادل و التحول الضمن النفسي و البين-ذاتي. » (Anzieu & Kaes, 1998, pp.95)

كما نجد مفهوم أخر في علاقة مع الوهم الجماعي كمكون الغلاف النفسي الجماعي و هو مفهوم "موضوع- جماعة" (objet-groupe) و هو يعني « تصور لمعاش لا شعوري مشترك لاعتقاد في تواجد وحدة هوامية خاصة. فالجماعة يمكنها أن تصبح كالمعالج النفسي موضوع استثمار النزوات الليبيدية العدوانية أو الهدم الذاتي و مكان لإسقاط الهوامات الفردية اللاشعورية. » (Decobert, 1998, pp.213-)

و لقد تبين أن الجماعة توفر لأعضائها «تنظيمات دفاعية مشتركة التي ترتكز عليها الدفاعات الفردية. فالعقود اللاشعورية وبعض مركبات القيادة المثل و الاعتقادات المشتركة تمثل الميتا-دفاعات. » (Kaes, 1999 p.51).

أما الوظائف الخاصة بالتصور فهي « مرتبطة جدا بسيرورة الترميز و الفكرة و من بين هذه الوظائف هو إنتاج تصورات ذاتية للجماعة مسجلة في حكايات، الأساطير، الإيديولوجيات و الطابوهات المنتجة من طرف خطاب الجماعة للجماعة و أعضائها و تقدم الأطر المترجمة للواقع لكامل الجماعة. » (Kaes, 1999, p.52)

كما تلعب الجماعة «دور الحاوي (contenant) لأعضائه التي تركبه و التي تمثل ما يسمى ب"المحتوى" (contenu) و يقوم أيضا بتنفيذ "وظيفة – حاوية" » (fonction-conteneur) (Décobert, 1998, pp.22-23) و تؤمن الجماعة وظائف نفسية متمثلة في « احتواء القلق، سند الفكر، تكوين جهاز لتفكير الأفكار، نقل أفكار جديدة و اختبارها » (Kaes, 2000, p.376)

و تتميز الجماعة ب «فضائل حضارية و تنفذ وظائف كبيرة في تطوير و الحفاظ على الحياة النفسية. فهي ضد العزلة، اليأس، و الخوف، و ضد المخاطر، و هجومات العالم الخارجي و العالم الداخلي، تقترح الجماعة جهاز حماية و دفاع بمقابل عقد انتماء دائم إلى الجماعة.» (Kaes, 1999, p.6)

كما يساهم الانتماء إلى الجماعة «بتجنب خطر قلق التفكك و فقدان الهوية. » (Privat, Quélin-Souligoux & Rouchy, 2001, p.2). و أخيرا تتحلى الجماعة بوظيفة ألا و هي «التوازن البين-الفردي و ذلك إلى جانب وظيفة التوازن الضمن-الفردي. » (Cosnier & Brossard, 1984, p.25)

4-2- النموذج البنيوي

في حين يميز النموذج البنيوي ما يسمى « بالقاعدة الجماعية، عقلية الجماعة، شارك الذات، الحقل الجماعي، قانون الجماعة، خطاب الجماعة و انفعالات الجماعة. فهذا النموذج تعمل على توضيح المستويات الثابتة و البنيات العميقة للواقع النفسي، و يصف المبادئ المكونة للتنظيم الدائم للجماعة و الصلاة ما بين أعضائها، القوانين التركيبية التي تربط الكل بعناصره. » (Kaes, 1999, p.52)

فالقاعدة الجماعية حسب فولكس (Foulkes) (1964) تناسب «فكرة جماعية و حتى نفس جماعية و تمثل الوحدة الأساسية أين يأخذ المكان كل السيرورات الدينامية، فكل عضو من الجماعة لديه خصوصيات مشتركة مع الآخرين (نفس النوع، نفس التركيب) التي تسبق الجماعة في الوجود و هذا ما نسميه القاعدة الأساسية و لكن الجماعة تتغير على حسب دينامية الجماعة و هذا ما نسميه القاعدة الدينامية. » (Baietto, Barthelemy & Gadeau, 2003, p.26)

و نعني بعقلية الجماعة عند بيون (Bion) «الخلفية المشتركة أين تصرف المساهمات المجهولة التي تسمح بإشباع النزوات و الرغبات الضمنية. فهو التعبير الإجماعي لإرادة الجماعة و يساهم الفرد فيها بطريقة لاشعورية في تمثل إذن ميكانيزم الاتصال البيني الذي يهدف إلى ضمان اتفاق حياة الجماعة مع الافتراضات الأساسية." (Pigott, 1998, p.126)

فيما يخص مفهوم شارك الذات فإنه يصف «درجة الصفر للبنية و هو حالة نفسية أولية يلعب دور منظم للأمن الأساسي في روابط الجماعة. في حين نعني بقانون الجماعة نوع من القانون المحلي يقبلها و يوافق عليها أعضائها أو تفرض عليهم بطريقة ضمنية أو ظاهرية من أجل إشباع غايتهم الخيالية. فهي قانون تركيب و توظيف الجماعة ككل يتحلى بواقع نفسي. » (Kaes, 1999, p.55)

3-2- النموذج الوراثي

يركز النموذج الوراثي على «مفهوم المنظم و مسألة النكوص و الترجمة. و هي تهتم بتطور الجماعة انطلاقا من فترة ابتدائية و مرحلة نهائية. فهي وجهة نظر مؤرخة تصف سيرورة وتقدم ونمو نفسي. » (Kaes, 1999, p.61)

3- تناول التحليل النفسي للجماعة

سوف نعمد على مجادلة و مناقشة سبب اعتمادنا نظرية التحليل النفسي في تناول الجماعة. إنها« نظرية قوية جدا في شرح تعقد الواقع النفسي التي تخلق في ترتيب روابط الجماعة. لكن لا بد من الاعتراف أن تطبيق التحليل النفسي على الحقل الاجتماعي كنموذج يوقض العديد من التساؤلات بسبب الكسر الابستمولوجي ما بين هذين الحقلين من المعرفة. » (Chapelier, 2000, p.31)

و لقد اقترح تناول التحليل النفسي للجماعات فهم خاص للسيرورات الجماعية و التذكير بأنه جزء كبير من ماذا يحدث في الجماعة و الروابط التي يتم نسجها فيها هي ذات طبيعة وجدانية و لاشعورية. (Aebischer & Oberlé, 1998, p.29)

و من بين إسهامات التحليل النفسي لفهم الظواهر الدينامية للجماعات يمكننا ذكر أعمال بيون (Bion) و ازغييل (Ezriel) الذين درسا دور «الدوافع و أدوار الجماعات اللاشعورية. كما ساهم التيار التحليلي النفسي في دراسة سيرورة الوارثة و إبراز أهمية التجارب الجماعية الأولى في فهم السلوكات اللاحقة عند الفرد في الجماعة. فالجماعة العائلية تمثل عند الطفل نموذج للجماعة. » (Faucheux, 1957, p.434)

فيعتبر بيون (Bion) (1961) الأول الذي قدم «نظرية تحليلة-نفسية بحتة للجماعة. فطور نموذج نظري قوي للتحدث عن تشكيلات و سيرورات الحياة النفسية في الجماعة. فالمصطلحات التي طورها تتناول الجماعة كوحدة خاصة و تسمح بالوصف بالجماعي الظواهر التي تحدث فيه. و يميز نمطين من التوظيف النفسي في الجماعات الصغيرة ألا و هما "جماعة العمل" أين تهيمن شروط السيرورات الثانوية

و"جماعة القاعدة" أين تهيمن السيرورات الابتدائية. » (Kaes, 1999, p.26)

كما اهتم فرويد (Freud) مباشرة ب «علم النفس الجماعي و ادراكاته مارست تأثير حاسم على العديد من العياديين الموجهين نحو الدراسة و الممارسة العيادية للجماعة. و ذلك يفسر أولا لكون لديها طابع دينامي و أيضا نتيجة تطور العلاج الجماعي الذي واجه الأطباء العقليين إلى ظواهر جماعية. » (Maisonneuve, 2014, p.10).

فحسبه لا يوجد فرق في « الطبيعة ما بين علم النفس الفردي و علم النفس الجماعي و أن كل علاقة مع الأخر هي في الأساس ذات طبيعة وجدانية وترجع إلى ديناميتين عادة مشتركة ألا وهي الرغبة و التقمص. كما نلاحظ درجة تعقيد الروابط الجماعية عند فرويد (Freud) و المكانة المركزية التي يحتلها الرائد عنده، بحيث حسبه الرابط الاجتماعي يرتكز على التحويل في إحساس معاد في الأصل إلى تعلق ايجابي الذي ما هو إلا تقمص » (Maisonneuve, 2014, pp.36-37) فنلاحظ بعد التمعن أنه ننسى في «بعض الأحيان أن الجانب الكبير من عمل فرويد (Freud) مخصص لعلم النفس الاجتماعي. » (Marc & Bonnal, 214, p.76) و هكذا اهتم فرويد بالجماعة في كل أشكالها. (Chapelier, 2000, p.17) و هكذا لعبت الأعمال الفرويدية دور أكيد في وضع المعالم سمحت بامتداد التحليل النفسي نحو الجماعة.

يعتبر قايس (Kaes) (1999) الفترة ما بين الحربين فترة خصبة لتحسس جديد لدراسة الجماعة لاسيما في الولايات المتحدة، إضافة إلى فترة سنوات الأربعين في لندن، بيونس ايرس في سنوات الخمسين، باريس في السنوات الستين و بعدها ايطاليا في نفس الفترة. في حين يشير نيري (Neri)(1997) أن الأفكار الأكثر أهمية حول التناول التحليلي النفسي للجماعة تم ارصانها خلال حوالي خمسون سنة أي ما بين الفاصل الزمني الممتد من كتاب طوطم و طابو (1912-1913) لفرويد و الأبحاث حول الجماعات الصغيرة لبيون (1961).

و بعد ذلك نذكر مساهمة كل من « فولكس غيكمان و ازغييل (Foulkes, Rickman et Ezriel) (1964) بتطوير التناول التحليلي الجماعي على أسس نظرية و منهجية مختلفة تماما عن ما ذكر عند بيون (Bion). فهو بصفة عامة وسيلة بحث و تحقيق حول التشكيلات و السيرورات النفسية التي تتطور في جماعة. تستعين في مصطلحاتها و تقنياتها بالتحليل النفسي لتصبح بذلك تقنية علاج تحليل نفسي جماعي. » (Kaes, 1999, pp.27-28)

و أعمال بيشون- غيفيير وبلجير (Pichon-Rivière وBleger) تتمثل في «محاولة ربط ثابت ما بين الفضاء النفسي الفردي و الفضاء النفسي الجماعي و المؤسساتي. فالأول يقترح في سنة 1971 فهم للجماعة يتواجد في مفترق طرق ما بين بعض الفرضيات التحليلية النفسية و فرضيات مسلفة عن علم النفس الاجتماعي و علم نفس الوراثة. و يعطي مكانة مركزية لمصطلح "الرابط" و يعتبر قاعدة كل جماعة هي العائلة كما يهتم بمفاهيم الاتصال و الأدوار. أما الثاني فلقد ساهم في النظرية التحليلية الجماعية بالتمييز ما بين مستويين من أشكال المؤانسة (الميل الاجتماعي) ألا و هي المؤانسة التوفيقية و المؤانسة عن طريق التفاعلات. » (Kaes, 1999, pp.31-32)

كما حدث إسهام كبير جدا من قبل «رواد المدرسة الفرنسية. هذه الأعمال أعادت للجماعة قيمتها كموضوع نفسي، موضوع استثمار نزوي، و تصورات لاشعورية، جهاز ربط- فك ربط للعلاقات مع الموضوع و الأحمال الليبدية و المميتة التي تشترك في ذلك. » (Kaes, 2006, pp.232-233).

بعد فرويد (Freud) تم «الاهتمام بالجماعة من منظور التحليل النفسي من طرف العديد من المحللين النفسانيين الفرنسيين أمثال بونتاليس (Pontalis) (1963) الذي ينظر إلى الجماعة كموضوع نفسي. إضافة إلى مساهمة أنزيو (Anzieu) (1966) الذي يعتبر الجماعة كتحقيق الرغبات اللاشعورية مثلما هو الحال في الحلم و أخيرا مساهمة قايس (Kaes) عن طريق صياغة المعدات الجماعية للأنفس وذلك بافتراض في نهاية سنوات الستينات فرضية تنص أن الجماعة هي مكان لواقع نفسي خاص و هذا الأخير ينتج و تحول و تحتوى و تسير بفضل الجهاز النفسي الجماعي أين تعمل تنظيمات لاشعورية توصف كجماعات داخلية. » (Kaes, 1999, pp.34-35)

و يعتبر في هذا الصدد «كتاب أنزيو (Anzieu) (1975) تحت عنوان « le groupe et l'inconscient » التعبير الأول المنظم للبحث الفرنسي حول تناول التحليل النفسي للجماعات الصغيرة. و لقد سبق ذلك بكتاب جماعي صدر سنة 1972 بعنوان « le travail psychanalytique dans les groupes » و ساهم فيه خمسة محليلين. » (Kaes, 1999, p.IX)

كما أن مسألة الجماعة في التحليل النفسي تم أيضا معالجتها بصفة دقيقة من طرف قايس (Kaes) و ذلك خاصة في كتابه « Le Groupe et le Sujet du groupe » (1993) و كتب أخرى (الرجوع إلى قائمة المراجع). في هذا النطاق يؤكد إذن Kaes (1993) أن« الضمن النفسي مرتبط مباشرة بالبين-الشخصي. » (Kaes, 1993, p.300).

فالتناول التحليلي النفسي للجماعة يلتقي عادة بسؤال أساسي ألا و هو مسألة المصطلحات التي تفسر السيرورات و التشكيلات النفسية التي لا تخص الفرد وحده و لكن تخص الواقع النفسي المشترك لوحدة الجماعة. و فيما يلي أهم المصطلحات التي تساعدنا في مذكرتنا هذه لتناول بمنظور التحليل النفسي مسألة الجماعة و الدينامية الجماعية و بتعبير أخر نستمد مفاهيمنا لتناول إشكالية بحثنا فيما يسميه قايس (Kaes) (2013) الموقعية الثالثة (troisième topique) أو قايس (Kaes) (2015) الميتابسيكولوجيا من النوع الثالث.

II- الدينامية الجماعية

1- تطور مفهوم الدينامية الجماعية عبر التاريخ

إن مفهوم دينامية الجماعة يجد نفسه في «ملتقى الطرق ما بين عدة تناولات نظرية. فتاريخيا يبقى مرتبط بدوركايم (Durkheim) و بفرويد (Freud) و لكن مخترع اللفظ يرجع إلى لوين (Lewin). » (Maisonneuve, 2014, p.7) و سوف يكون لأعماله أثر معتبر على علم النفس الجماعات الصغيرة. (Gosling et al, 2009, p.33)

ففي خلال السنوات الثلاثين و الأربعين أظهر علماء النفس الأمريكيون أن الجماعة لديها دينامية خاصة بها تتجاوز خصوصيات أعضائها. و بالتالي ظهر حقل جديد من الدراسة ألا و هو دينامية الجماعة و الذي عرف تطور هام بعد الحرب العالمية الثانية. نذكر ثلاثة مؤسسين ألا وهم مايو، لوين ومورينو (Mayo, Lewin et Moreno). نحن نركز هنا على لوين (Lewin) لأنه هو الذي استعمل لأول مرة لفظ دينامية الجماعة ونسند له نشأة دراسة هذا المفهوم.

فيقال إنه استعمل هذا اللفظ «لأول مرة في سنة 1944 في نص تناول العلاقات ما بين نظرية وتطبيق علم النفس الجماعي. » (Faucheux, 1957, p.425). فيعد « لوين (Lewin) مؤسس تيار البحث حول مفهوم الدينامية الجماعية و أعماله لديها أثر كبير على علم نفسية الجماعات الصغيرة. فعمل الباحث على تطبيق في التوظيف الجماعي مفهوم الحقل الدينامي الذي يعرفه كالترابط ما بين أعضاء الجماعة. » (Gosling, 1996, p.33) كما قدم بيون (Bion) (1952) مخطط قوي« لفهم الدينامية الجماعية. » (Garland, 2001, p.195).

فهناك تياران علميان كبيران يتناولان دراسة الجماعات الإنسانية الصغيرة. فالأول يطبق «نموذج مسلف عن العلوم الفيزيائية و يعرف الجماعة كحقل قوى تمارس داخل منطقة الحرية التي تتركها الهيئات الاجتماعية وتصرف الجماعة هو نتيجة تركيب هذه القوى على حسب قوانين نفسية-اجتماعية (Lewin). و التيار الثاني هو التحليل النفسي الذي بين أن تناسق الجماعة يأتي من تقمص أعضائه لنفس "مثالية الأنا"(Freud). فدينامية الجماعة إذن هي علم القوانين التي تربط تصرفات جماعة مع جهاز القوى التي تعمل بداخلها. » (Michel, 2001, pp.274-275)

2- تعريف الدينامية الجماعية

سوف نستهل هذه النقطة أولا بتعريف مفهوم "الدينامية" ثم ننتقل إلى تعريف مفهوم "الدينامية الجماعية" حتى يتسنى لنا التماس معنى

المفهوم بدقة :

2-1- التعريف اللغوي للدينامية

تعرف الدينامية لغويا في معجم اللغة العربية المعاصرة ك «نشاط كبير و نظرية تفترض وجود قوة كامنة في المادة. فهي تشير إلى الطاقة و القوة". (أحمد مختار، 2010 ،ص.238). و بالمعنى الواسع تدل كلمة الدينامية على ما يتضمن "حركة و تحول و عارض كل ما هو ثابت. » (Grawitz, 2000, p.137)

2-2- التعريف الاصطلاحي للدينامية

نعرف الدينامية كما يلي « يصف وجهة نظر التي تتناول الظواهر النفسية كنتيجة صراع و تركيب القوى التي تمارس نوع من الدفع، و هذه الأخيرة هي في النهاية من أصل نزوي. » (Laplanche & Pontalis, 1994, p.123)

فتبعث عبارة الدينامية إلى « سيرورة التغيير، كما يستعمل اللفظ للإشارة إلى دراسة ظاهرة في بعدها الزمني. فالدينامية تكون متصلة بالطريقة التي يحدث فيها التغيير الاجتماعي. » (Lebaron, 2009, p.50). و لفظ "الدينامية" في علم النفس و الفيزياء هو دائما «إرجاع و إحالة الموضوع إلى الحالة و الظرف" و تناول تصرف فرد أو جماعة في "حقله" » (Maisonneuve, 2014, p.8).

يقصد إذن بكلمة الدينامية بأنها التغير في حالة جزء من الكل يؤدي إلى تغيير في حالة الأجزاء الأخرى .

2-3- تعريف الدينامية الجماعية

يؤكد لوين (Lewin) (1948) « بأننا يمكننا وصف الجماعة ككل دينامي و هذا يعني أن أي تغيير في حالة أحد أجزائها فإنه يغير حالة كل الأجزاء التحتية و الدنيا. » (Lewin, 1948, p.81)

فتشير دينامية الجماعة إلى « التفاعلات التي تحدث ضمن الجماعات. » (Witting, 1990, p.294) و تبعث أيضا إلى « مجموعة من التقنيات التي تسمح بمعالجة توظيف و تفاعلات جماعة معينة. » (Robert, 2008, p.70). فالجماعة هي« "نسق" و دراسة دينامية هذا النسق يعني "تحديد القوى التي تدخل في الميدان، أشكال تفاعلاتها، و السيرورات التي تشتغل بفعل ذلك. » (Pétard, 2007, p.82)

فيما يخص دينامية الجماعة فينص لوين (Lewin) (1965) أن « حقل الجماعة كنسق ترابط ما بين كل عناصره يتضمن أعضاء الجماعة القيم والمعايير المقيمة أدوار ووضع كل واحد والتفاعل ما بين هذه القوى يميل إلى توازن شبه ثابت. والحفاظ أو انقطاع هذا الأخير يقوم بإضاءة توظيف أو تصرف جماعة معينة ». (Lewin, 1965, p.502)

و بالمعنى الواسع تشير الدينامية الجماعية إلى «مجموعة المركبات و السيرورات التي تتدخل في حياة الجماعة و بالخصوص جماعات وجه لوجه، أي التي كل أفرادها يتواجدون نفسيا لبعضهم البعض و يتواجدون في حالة ترابط، و بين- اعتماد، و تفاعل محتمل، و للتحدث عن الجماعة لا نكتفي بعوامل القرابة، التشابه و العلاقات المتبادلة و لكن يستوجب الأمر هدف، إطار مرجعي، و معاش مشترك. » (Maisonneuve, 2014, p.11)

و يعرف ميشيلي (Mucchielli) (2015) دينامية الجماعة ك « مجموعة من الأشخاص الذين يقيمون روابط فيما بينهم. » (Mucchielli, 2015, p.203) و تشير الدينامية الجماعية إلى «مجموعة التغييرات التي تحدث بصفة فردية و جماعية في الجماعة التي لا بد من دراستها وكذا تطبيقاتها العملية. » (Kipman, 2005, p.117) و تعني بالتحديد «دراسة التغيرات الناجمة عن التفاعلات ما بين أعضاء الجماعة. » (Grawitz, 2000, p.199) .

كما يبعث حقل الدينامية للشخص إلى « العوامل الداخلية و الخارجية للفرد و الظرف الاجتماعي لديه كل الأهمية في دراسة الجماعة. » (Aebischer & Oberlé, 1998, p.119)

و هكذا يشير مفهوم الدينامية الجماعية إلى« السيرورات التي تحدث حتما في الجماعات و بالخصوص في الجماعات المغلقة نسبيا أو

المستقرة نسبيا و ذلك ما بين الأعضاء و على كل المستويات. » (Garland, 2015, p.193)

كما قدم سيلامي (Sillamy) (1980) في معجمه الموسوعي في علم النفس ملخصا جيدا حول هذا المفهوم و نعرضه فيما يلي. إن دراسة دينامية الجماعة ترمي إلى «دراسة القوى العاملة وسط جماعة من الجماعات. فهذا المصطلح المنسوب إلى لوين (Lewin) و الذي استخدمه للدلالة على مجموع التفاعلات الشخصية وسط الجماعة، و القوانين التي تحكمها وأسلوب تبنينها وصداها على كل عضو من أعضاء هذه الجماعة. و الواقع أن الجماعة هي موجود، متحرك وحدة عضوية خاضعة لقوى داخلية و خارجية، توازنها يتعدل باستمرار ذلك أن الأشخاص الذين يألفونها يعيدون باستمرار ضبط اتجاهاتهم و يحولون علاقاتهم و يخلق سيرورة دينامية دائمة من التكيف. و بوسعنا أن نميز في جماعة واحدة قوى تماسك، و قطيعة متباعدة، و ضروبا من التعاطف و التنافر، و رؤساء، منعزلين، عصابات، معارضين، ومنشقين، و شبكات من التواصل، و وجدانا اجتماعيا (اعتقادات، وعواطف مشتركة)، إخ، و حققت دراسة دينامية الجماعة مع إدخال القياس الاجتماعي الذي ابتكره مورينو (Moreno) و إدخال نظرية الحقل ل لوين (Lewin) ضروبا عظيمة من التقدم. » (Sillamy, 1980, p.109).

و بالتالي تبعث عبارة دينامية الجماعة إلى مجموعة الظواهر، الآليات النفسية و الاجتماعية التي تظهر و تسود الجماعة. و ننتقل إلى عرض مفصل في العناصر التي تسمح لنا بتناول الدينامية الجماعية و ذلك طبعا بمنظور التحليل النفسي.

3- عناصر الدينامية الجماعية

إن «التحليل النفسي المطبق على ظواهر الجماعات يستجيب لمعايير تحليلية نفسية بحتة و يخص المعيار الأول المصطلحات.» (Anzieu, 1999, p.12) و هذا العرض سوف يتضمن «مصطلحات جديدة و أصيلة بدأ البعض في اقتراحها خلال الندوات التكوينية في التحليل النفسي الجماعي. » (Guimon, 2001, p.46)

3-1- الأغلفة النفسية الحاوية الجماعية

لقد حددنا في بحثنا و انطلاقا من قراءتنا ثلاثة أغلفة جماعية و التي تسمح دراستها بتناول طبيعة التوظيف الجماعي بمنظور تحليلي نفسي و هي :

3-1-1- الجهاز النفسي الجماعي و وظائفه

لقد «بدأ قايس (Kaes) في تخيل الجهاز النفسي الجماعي في بداية سنة 1969، و قدم مخططا إجماليا أوليا في جانفي 1970، ثم نسخة أكثر ارصانا في أكتوبر 1971 و قدم العمل سنتين بعد ذلك في مذكرة دكتوراه دولة، وألفها سنتين أيضا بعد ذلك أي في 1976 في كتاب بعنوان « l'appareil psychique groupal ». » (Kaes, 2010 b, p.11). لقد اقترح إذن مصطلح الجهاز النفسي الجماعي من «طرف قايس (Kaes) في بداية سنوات السبعينات كنموذج نظري معد لتناول سيرورة التجمع والتنسيق ما بين- ذاتي (appareillage intersubjectif) ما بين الأفراد الذين يكونون الجماعة و تكوينات الواقع النفسي التي تنجم من ذلك. إن سيرورة التجمع البين- الذاتي يظهر كخلق حاويات و احتواءات النفسية الأصلية تستند على بعض البنيات المنظمة للنفس الفردية، هذه البنيات التي لقبها قايس (Kaes) بالجماعات الداخلية. هذه الجماعات الداخلية (الهوامات الأصلية، صورة الجسد، الخ) تنفذ وظيفة تنظيم التجمع. فيمثل الجهاز النفسي الجماعي، نموذج تصور الحياة النفسية في الجماعات. » (Kaes, 1998, p.21)

إن الجهاز النفسي الجماعي هو جهاز «لا يمكن حصره في جهاز نفسي فردي، فهو ليس اسقاط له و هو ينفذ عمل نفسي خاص يتمثل في انتاج و معالجة الواقع النفسي للجماعة و داخلها. فهو جهاز ربط و تحويل العناصر النفسية و لا يشتغل إلا بواسطة مساهمات أفراده. » (Kaes, 1999, p64)

إذا كان الجهاز النفسي الفردي يستند على «الجسد البيولوجي، فإن الجهاز الجماعي يستند على النسيج الاجتماعي. » (Anzieu,

(2010, p.2) و هو يدل على «بناء مشترك لأعضاء الجماعة لتكوين جماعة. » (Neri, 1997, p.139) و نذكر من بين وظائف هذا الجهاز الجماعي «الربط البين- ذاتي (liaison intersubjective) لعواقب اللاشعور الانتقال و التبادل ما بين الهيئات المختلفة، التفرقة في الأماكن في الهيئات و الوظائف النفسية، تحويل التكوينات و السيرورات النفسية لأفراده، احتواء الواقع النفسي لأفرادها، تصور الجماعة كموضوع و ككل وتصور الجماعات و إلى جانب هذه الأعمال النفسية، فيقوم الجهاز النفسي الجماعي باحتواء الجهاز النفسي الفردي.» (Kaes, 1998, p.25)

و على المستوى الموقعي فإنه« هنالك تشابه بين الجماعة و الجهاز النفسي الفردي ففيما يخص الموقعية الأولى نجد شعور الجماعة (اللغة الظاهرة) ، ماقبل الشعور (ما هو كامن) ، اللاشعور (عالم الغير-المقال) ، أما فيما يخص الموقعية الثانية نجد الهو (القطب النزوي للجماعة) ، الأنا (الممثل لمصالح الجماعة) ، الأنا الأعلى (قواعد التوظيف و المبادئ الأساسية المشتركة من قبل كافة الأعضاء) ، مثالية الأنا (نموذج يحاول أعضاء الجماعة التشبه به و التقمص) و الأنا المثالي (تقمص مثالي للجماعة نفسها و هيمنة القوة الساحقة النرجسية). » (Amado & Guittet, 2012, p.116)

3-1-2- الغلاف النفسي الجماعي

تعتبر « نظرية الغلاف النفسي من النظريات التحليلية النفسية التي لجأت إلى الاستعارة. و يعود هذا المفهوم إلى أنزيو (Anzieu)(1976) و ذلك تمديدا لنظريته حول الأنا-الجلدي (1974) » . (Houzel, 2000, p.164). و تعتبر سيشود (Séchaud) (1995) الغلاف النفسي في مقدمة كتاب "الأنا-الجلدي" (moi-peau)على أنه مصطلح تجريدي يندرج ضمن علم اللنفس التحليلي و مفاهيم ميتابسيكولوجية.

يؤكد أنزيو (Anzieu) (1975- 1999) أن الجماعة هي غلاف . و إن الغلاف النفسي هو «غشاء لين يميز ميادين الداخل و الخارج و السماح بتبادلات ما بين هذه الأماكن. فيمثل الغلاف نموذج هام لتأويل التوظيف العقلي.» (Doron, 2003, p.6) و لكن أدى تمديد التحليل النفسي إلى «حالات الجماعات، العائلات و المؤسسات إلى مواجهة مظاهر جديدة من التوظيف العقلي و هذا ما أدى إلى التعريف بأغلفة نفسية غير فردية أي جماعية، عائلية و مؤسساتية.» (Houzel, 2003, p.73)

و لقد اقترح في هذا الصدد أنزيو (Anzieu) مفهوم الغلاف النفسي الجماعي في « سنة 1986 و حسبه هذا الغلاف لا يمثل موضوع نفسي و لا هيئة و إنما وظيفة. و وظيفة الغلاف هي وظيفة احتواء. » (Ciccone, 2001, p.81) و إضافة إلى ذلك يمثل الغلاف الجماعي « نظام قواعد. فهو غلاف حي يبني حاجز حامي ضد الخارج و يعمل أيضا كمصفاة. فهو غلاف ذات وجهين يخص الأول واقع خارجي، جسدي و اجتماعي و يخص الوجه الثاني واقع داخلي لعناصر الجماعة.» (Anzieu, 1999, p.2)

و يقوم الغلاف الجماعي« بواسطة الوجه الأول بإقامة حاجز حامي ضد الخارج و تشتغل أيضا كمصفاة للطاقة التي تستقبلها و المعلومات التي تقدمها في حين يضمن الوجه الثاني إقامة حالة نفسية عبر-فردية التي يطلق عليها اسم ذات الجماعة الذي يحوي المرور الهوامي و التقمصي بين الأشخاص » (Anzieu, 1984, p.2) و هكذا تمثل الأغلفة النفسية أسطح بينية ما بين البيولوجي و النفسي في حين تحدد الأغلفة الجماعية حواجز و حدود بالنسبة لما هو "خارجي" أما بالنسبة لما هو "داخلي" فإنها تمثل نسيج يربط و يصل و صلابة هذه الحواجز يضمن شرط أساسي للارصان داخل الجماعة. إذا كان السطح الخارجي ليس قوي بما فيه الكفاية أو إذا كان مهددا لابد أن يقوم النسيج الداخلي بتعزيزه و هذا ما يكلف طاقة نفسية مما ينجم عن ذلك زيادة الاتصال تحت تأثير التقمص الاسقاطي و ارتفاع الإحساس بالاضطهاد. (Gibello, 2000)

3-1-3- الجلد الجماعي (الأنا-الجلدي الجماعي)

يعرف أنزيو (1995) الأنا-الجلدي لأول مرة « في 1974 على أنه الرمز أو الصورة التي تعبر عن أنا الطفل في المراحل البدائية من نموه إلى أن يتمثل هو بنفسه انطلاقا من تجربته مع سطح جسده و بهذا، فالأنا-الجلدي يجد السند انطلاقا من مختلف الوظائف الجلدية.

(Anzieu, 1995, p.1) »

يتميز الأنا -الجلدي بثمانية وظائف تتمثل في « :وظيفة المحافظة و الصيانة، وظيفة الاحتواء، وظيفة صاد المثيرات، وظيفة التفرد، وظيفة المطابقة بين فئات الإحساس المختلفة في فضاء حسي مشترك، وظيفة السند للإثارة الجنسية، وظيفة التعبئة اللبيدية، تسجيل الآثار. » (Anzieu, 1996, pp.246-247) و إضافة إلى ذلك هنالك وظيفة تاسعة متمثلة في « الهدم الذاتي و المسماة بوظيفة التسمم و التي تمثل وظيفة مضادة للوظائف الثمانية المذكورة. » (Sommantico, 2008, p.201)

لقد اقترح أنزيو (Anzieu) مفهوم الجلد الجماعي في «سنة 1986 و ذلك بعد التنظير الذي قام به سنة 1985 حول "الأنا-الجلدي" . يقوم الأنا-الجلدي الجماعي بالاحتواء، بالتحديد و بالحماية. » (Anzieu, 1999, p.234)

و في هذا النطاق وصف « أنزيو (Anzieu) وظائف الأنا-الجلدي الجماعي انطلاقا من وظائف الأنا-الجلدي الفردي و هكذا يقوم الغلاف الجماعي باحتواء أعضاء الجماعة التي تصفي كل مرور و تحمي الجماعة من كل تنبيهات داخلية و خارجية. » (Sommantico, 2008, p.202)

3-2- الرابط الجماعي

إن الرابط « ليس مجموع فردين أو أكثر من فردين، فهو فضاء نفسي يبنى انطلاقا من المادة النفسية المستخدمة في علاقاتهم، فالرابط هو بحد ذاته تكوين وسيطي ما بين الأفراد و صور الرابط: جماعة، عائلة، أو مؤسسة ». (Kaes, 2010, p.XIV). و يشير بذلك الرابط إلى ما يصل و يربط و ينظم الأجزاء المتباينة و المشتركة التي تدخل في التقاء عنصرين مختلفين. فالربط هو ضم و جمع عناصر متنوعة في مجموع. و من بين المبادئ الأساسية لعلم النفس الاجتماعي هو «أن كل فرد هو مندرج في شبكة علاقات داخل العائلة، الجماعة، المجتمع و هذا الانضمام يعبر عنه في سلوكات اتصال، تعاون على أساس ما نسميه التعلق. » (Caralp & Gallo, 1999, pp.97-98).

يعتبر مصطلح "الرابط" حديث النشأة في التحليل النفسي (Athanassiou-Popesco,1998) و في هذا التناول ، فإن « الرابط ما بين - الإنساني الابتدائي (في الزوجين، الجماعة، الحياة الاجتماعية) يتمثل في تبادل الهوامات و هذا ما يكون تحتي للروابط النفسية الأخرى اللاشعورية (تقمص، تحويل) و شعورية (أحاسيس، تصورات) التي تكون إلى حد ما الناقل و القوة. » (Maisonneuve, 2014, p.39). ف« الرابط البين-الإنساني اللاشعوري في الحياة العائلية ناتج عن المرور الهوامي » (Anzieu, 1984, p.180)

كما نجد أن سؤال الرابط الاجتماعي اهتم به أصحاب «التيار التحليل النفسي اللاكاني الذين يعتبرون أن مثل هذا النوع من الرابط يخلق من طرف بنية اللغة. » (Naveau, 2004, p.1).

يرى قايس (Kaes) (1999) أن «في البداية لم يهتم المحليلين النفسانيين بمسألة رابط الجماعة و اهتموا بالروابط البين-ذاتية لما ظهرت هذه الأخيرة ضرورية لبناء الذاتية. فالتحليل النفسي يهتم بالبنية الداخلية للرابط أي العلاقة بالموضوع في حين يهتم علم النفس الاجتماعي الرابط الخارجي. » (Kaes, 1999, p.85) و كما كتب قايس (Kaes) (2010) ما يلي « يعرف الرابط الجماعي عبر بنية التبادلات ما بين الأجهزة النفسية الفردية بواسطة هذا المبادل الذي يتمثل في الجهاز النفسي الجماعي و أعرف الرابط الجماعي كبنية التبادلات المسموح بها من طرف الجهاز النفسي الجماعي فيما يخص التقمصات، الهيئات الموضعية، الأماكن الهوامية، أشكال صورة الجسد". (Kaes, 2010, p.202)

3-3- الدفاعات الجماعية

يمكن للجماعة أن « تكون آليات دفاعية مشتركة » (Anzieu, 1984, p.5). و هكذا و إلى جانب« الآليات الدفاعية المسماة بالنفسية، الضمن-النفسية، الداخلية و الفردية، فهناك العديد من الباحثون يتكلمون عن وجود دفاعات أخرى. يتحدث ميشلي (Mucchielli) (1981) عن "الأشكال الاجتماعية للدفاعات الداخلية" و هي تتركب من مجموعة الدفاعات المتواجدة في نفس

الوقت عند عدد كبير من الأفراد و تكسوا شكل جماعي. هناك شكل آخر من الدفاع و المركب من الدفاعات العبر –شخصية التي تسمح للأنا من حماية نفسه بالتأثير على علاقاته مع العالم و المحيط. كما أنه نجد من وصف آليات دفاعية جماعية و نذكر بالخصوص أعمال جاك (Jacques) (1955، 1965) أنزيو (Anzieu) (1975) قايس (Kaes) (1976، 1980، 1993) و غوسيو (Roussillon) (1988، 1991). فيستعمل أعضاء الجماعة هذه الآليات من أجل تعزيز و مساندة دفاعاته الخاصة به أو لإيجاد بديل أو نائب لدفاعاتهم العاجزة و الضعيفة. » (Ionescu, Jacquet & Lhote, 2003, p.99)

و كمثال لهذه الآليات الجماعية نجد "الهوام" (Anzieu, 1984, p.5) كما نذكر من بين الدفاعات الجماعية « الايدولوجيا التي تحمي هوية الأفراد ضد التنافر التاريخي أو السياسي، تقضي على الشك بتحلية إدراك الأحداث التاريخية المزعجة، تعزز بصفة دائمة الجماعة في إحساسها بالواقعية، تسمح بتجنب أحداث مقلقة، تكون تبرير لنظرة العالم، تبرى العنف، و أخيرا تلعب دور المصفاة بمنح قيمتين فقط الجيد و السيئ. و هكذا تغطي الايديولوجيا آليات كلاسيكية مختلفة، من بينها ذكر ميشيلي (Mucchielli) :الكبت (تعمل الايديولوجيا على إرغام أعضاء الجماعة على تبني تصرفات و طرق تفكير و موانع مماثلة و بالتالي خنق الصراعات الداخلية للجماعة) ، الإسقاط (بتعيين أعداء يسقطون عليهم نزواتهم) ، الإلغاء (تحويل حدث إلى آخر) ، الإعلاء و التسامي (إعلاء بالإحساس بالدونية في خطاب على تنظيم الحكم). كما أنه هنالك دفاع آخر تحدث عليه ميشيلي (Mucchielli) (1980 ،1981) و المسماة بالدفاعات الاجتماعية. تقوم هذه الآليات بالدفاع عن الأنا الاجتماعي ضد الأخطار الخارجية التي تمس بقيمته و هي ثلاثة أنواع الأبعاد، التجميد و التقارب. تهدف هذه الدفاعات إلى تكيف الفرد مع عالمه الخارجي و نذكر في هذا النطاق "نظام الأمن" الذي تكلم عنه كردينر (Kardiner) (1947) و المكون من مجموعة التصرفات المستعملة من قبل أفراد نفس المجتمع لمواجهة الأخطار و الاحباطات. » (Ionescu, Jacquet & Lhote, 2003, pp.100-101)

و من جهته يذكر قايس (Kaes) (1998) أنه من بين الدفاعات النفسية الجماعية نجد الوهم الجماعي، العقود و التحالفات اللاشعورية. و سوف نعرض أهمها فيما يلي :

-**منظمات التجمع و التنسيق** (organisateurs de l'appareillage): لقد أدخل مصطلح المنظم النفسي للجماعة من طرف «قايس (Kaes) انطلاقا من سنة 1967. و يعني بذلك تكوينات لاشعورية معقدة نسبيا التي تمكن، تسند، وتعبر عن التطور المدمج لروابط التجمع. » (Kaes, 1998, p.21)

-**الجماعات الداخلية** (groupes internes):إنها تمثل «منظمات الجهاز النفسي الجماعي وتضمن البنية القاعدية للتجمع. » (Kaes, 1998, p.22) و يتناول مصطلح الجماعة الداخلية « معالجة أشكال التجمع النفسي و سيرورات تحويلها كمنظمات نفسية لاشعورية لرابط البين-الذاتي للجماعة. » (Kaes, 1999, p.111) و تشتغل الجماعات الداخلية ك «منظمات لسيرورة الروابط البين-الذاتية و تكوين الجهاز النفسي الجماعي. » (Kaes, 1998, p.66)

يعني قايس Kaes (1993) بمفهوم "الجماعة الداخلية" ما يلي « البنية التي انطلاقا منها الفرد يحول، يعلن عن نفسه و يترجم نفسه بإدراج المحلل. في العيادة التحليلية-النفسية، الجماعة الداخلية هي تشكيل المواضيع العائلية (الأبوية، الأخوية، الأجداد) طفولية. هذا التشكيل يخص انتقائيا الجماعة العائلية الداخلية، الروابط ما بين المواضيع العائلية البدائية أو الأوديبية، و لكن أيضا ثانويا و بالرجوع إلى تصور الجماعة العائلية، جماعة الغير-العائلية و الغرباء. » (Kaes, 1993, p.167) و يضيف Kaes (2007) أن «الجماعات الداخلية هي تنظيم للمادة النفسية. » (Kaes, 2007, pp.89-91) و كما يعتقد روشي (Rouchy) (2009) أنه تتواجد على «المستوى الجماعي قاعدة مشتركة أي سند ثقافي مشترك و هو ما سيتم منه التفريد. » (Rouchy, 2009, p.211).

-**التشكيلات الوسطية و الوظائف** phorique[1] :يقوم بعض الأفراد بتنفيذ الوظائف الوسطية في الجماعة و هذا ما بينته البحوث حول الروابط البين-ذاتية. و يشير مصطلح "وظيفة phorique" إلى «"وظائف الحمل، السند، و الحراسة » (Kaes, 2010a, p.198)

و أحسن مثال على ذلك هو «"المتحدث باسم" أو "الناطق باسم". » (aes, 2010b, p.221)

-التحالفات اللاشعورية و المجموعات البين- ذاتية : تشارك التحالفات اللاشعورية في «الوظائف الميتا- دفاعية أي أنه لا بد على الجماعة توفير لأعضائها تنظيمات دفاعية مشتركة التي تمثل سندا لدفاعاتهم الفردية. كما يمثل تأسيس القائد، المثلنة، و المثل المشتركة أيضا دفاعات. كما أنه يعد الرابط الجماعي وتكوين الواقع النفسي الخاص بالجماعة ينتظم حسب سلسلة من العمليات كالكبت، الإنكار، أو الرفض التي تقام بصفة مشتركة من طرف أفراد هذا الرابط لخدمة المصلحة المشتركة. » (Kaes, 1999, p.99)

و تعرف التحالفات اللاشعورية بأنها «تكوين نفسي ما بين- ذاتي تبنى من قبل أفراد الرابط، من أجل تقوية عند كل واحد منهم مجموعة من السيرورات، بعض الوظائف، أو بعض البنيات. » (Kaes, 1999, p.100) ، كما تمثل التحالفات اللاشعورية إحدى «التكوينات الرئيسية للواقع النفسي. ولديها جانبان؛ الأول يعمل على تنظيم، و تمييز تماسك و متانة الروابط، التي تكون ما بين عدة أفراد. و الثاني يعمل على سند عند كل واحد ما يجب كبته إنكاره أو نبذه. و بالتالي يساهم في بناء الحياة النفسية عند كل فرد. كما يميز التاريخ عدة أنواع من التحالفات اللاشعورية و هي التحالفات البناءة، التحالفات الدفاعية و الهجومية، التحالفات المرضية و الاستلابية. » (Kaes, 2009, p.3) كما تمثل التحالفات اللاشعورية قاعدة الرابط البين-الذاتي. » (Rouchy, 2008, p.165)

- العقود النرجسية :يناسب مفهوم العقود النرجسية «انساب مكانة محددة في الجماعة لكل واحد و التي تعين من قبل الأصوات التي عقدت خطاب منسجم مع الأسطورة المؤسسة للجماعة، و يحتوي هذا الخطاب أمثال و قيم الجماعة و يعمل على نقل ثقافة هذه الأخيرة. » (Kaes, 1999, p.101)

- التحالف النرجسي :و في مقابل العقود النرجسية التي تتضمن عنف بناء، نذكر الميثاق أو التحالف النرجسي. نعني بهذا الأخير ما يلي « تخصيص ثابت في موقع ذات تطابق نرجسي تامة. » (Kaes, 1999, p.101)

- الميثاق الإنكاري :كما نعني بالميثاق الإنكاري «العمليات المختلفة (الكبت، الإنكار، الرفض، التكييس) التي تكون مطلوبة في كل رابط ما بين-ذاتي من أجل تكوين الرابط والحفاظ عليه. فلديه قطبين، القطب التنظيمي والقطب الدفاعي. » (Kaes, 1999, p.102)

- جماعة الإنكار : عموما تغطي «جماعة الإنكار واقعية موضوع رغبة الأخر و تحافظ على حالة عدم التمييز و التفرقة ما بين أفراد الرابط. » (Kaes, 1999, p.102)

- التحالف الإنكاري :يستخدم هذا المفهوم لوصف وضعية «أين الرابط يستعمل للحفاظ خارج الكبت الثانوي تصورات مطرودة عن طريق الإنكار. » (Kaes, 1999, p.103)

- التحالفات الشاذة :تتميز ب «السر المشترك و الهيمنة و التسلط التي يمارسها الشاذ على شركائه. » (Kaes, 1999, p.104)

و إلى جانب ذلك نجد دفاعات جماعية أخرى « من بينها "الكبت الجماعي" و الذي يعمل على منع الاتصال الكامل بين أعضاء الجماعة و هو يدخل ضمن سجل اللاشعور و عالم الغير-المقال، فهو يشمل الأفكار الحاضرة عند فرد، عدة أفراد أو الجماعة بأكملها و التي لا يتم التعبير عنها بصوت عال أي وجها لوجه، بل يتم كبتها بسبب الخوف من الذات نفسها أو من الأخر. » (Amado & Guittet, 2012, p.114)

4. خاتمة:

نخلص من هذا المقال الذي تناول مفهوم الدينامية الجماعية لاسيما من وجهتي نظر التحليل النفسي و علم النفس الاجتماعي، أن ديناميات الجماعة تشير إلى الأفعال، العمليات، و التغيرات المؤثرة التي تحدث داخل و بين المجموعات. إذن ديناميات الجماعة لا تقتصر على تعريف الجماعة أو وصفها، أو وصف السلوك الدائر داخل الجماعة، بل تتخطى ذلك لمعرفة المتغيرات التي تحدث داخل الجماعة. فمن أهم الخصائص التي تميز الدينامية الجماعية ذكرنا : التغير، الاستمرارية، الطاقة، الكلية، و التفاعل. فعلى المستوى النظري، يبدو لنا أن

اقتران المصطلحات التحليلية و الدينامية تظهر وثيقة الصلة لفهم جميع الأبعاد الوجدانية، الوظيفية، الثقافية و الظرفية التي توجه مصير الجماعة. فالسجل الفرويدي يسمح بتوضيح مرونة و معنى السيرورة.

5- قائمة المراجع:

1. أحمد مختار، ع ع. (2010). معجم اللغة العربية المعاصرة (ط 2). القاهرة : عالم الكتب.
2. معجم المعاني الجامع عربي-عربي. (2015). مصر : المكتبة الشاملة.
3. المعجم الوسيط (ط 5). (2008). مصر : مكتبة الشروق الدولية.

1. Aebischer, V., & Oberlé, D. (1998). *Le groupe en psychologie sociale*. Paris : Dunod.
2. Anzieu, D. (1971). L'illusion groupale. *Nouvelle revue de psychanalyse*, (4), 73-93.
3. Anzieu, D. (1981/1984). *Le groupe et l'inconscient*. Parsi : Dunod.
4. Anzieu, D. (1995). *Le moi - peau*. Paris : Dunod.
5. Anzieu, D. (1996). *Créer Détruire*. Paris : Dunod.
6. Anzieu, D., & Kaes, R. (1998). Imaginaire groupal. In J P. Caillot (Eds.), vocabulaire *de psychanalyse groupale et familiale* (pp. 92- 97). Paris : Collège de psychanalyse groupale et familiale.
7. Anzieu, D., & Martin, J- Y. (1968- 2013). *La dynamique des groupes restreints* (12é èd). Paris : PUF.
8. Baietto, M-C., Barthelemy, A., & Gadeau, L. (2003). *Pour une Clinique de la relation éducative*. Paris : L'Harmattan.
9. Bassand, M. (1980). Groupe. In N. sellamy (Eds.), Dictionnaire *encyclopédique de psychologie* (235- 237). Paris : Bordas.
10. Bion, W-R. (1965-2009). *Recherches sur les petits groupes*. Paris : PUF.
11. Bourdin, D. (2007). *La psychanalyse de Freud à aujourd'hui : histoire, concepts et pratiques*. Paris : Bréal.
12. Cerclé, A., & Somat, A. (2005). *Psychologie sociale, cours et exercices*. Paris : Dunod.
13. Chapelier, J- B. (2000). *Les psychothérapies de groupe*. Paris : Dunod.
14. Chapelier, J- B. (2015). *Les psychothérapies du groupe* (2é èd). Paris : Dunod.
15. Chemama, R., & Vandermersch, B. (2009). *Dictionnaire de la psychanalyse*. Paris : Larousse.
16. Ciccone, A. (2001). Enveloppe psychique et fonction contenante : modèles et pratiques. *Cahiers de psychologie clinique*, 2 (17), 81- 102.
17. Cosnier, J., & Brossard, A. (Eds.), (1984). *La communication non verbale*. Paris. Delachaux et Niestlé.
18. Decobert, S. (1998). Objet – groupe. In J P. Caillot (Eds.), vocabulaire *de psychanalyse groupale et familiale* (pp. 213- 217). Paris : Collège de psychanalyse groupale et familiale
19. Delourme, A., & Edmond, M. (2004). *Pratiquer la psychothérapie*. Paris : Dunod.
20. Doron, J. (1987 – 2003). Du moi peau à l'enveloppe psychique. In D. Anzieu et al (Eds.), *Les enveloppes psychiques* (pp. 1- 17). Paris : Dunod.
21. Duparc, F. (2004). *Le mal des idéologies*. Paris : PUF.
22. Ey, H. (1989). *Manuel de psychiatrie* (6é èd). Paris : Masson.
23. Faucheux, Ci. (2009). La dynamique de groupe. *L'année psychologique*, 57 (2), 425- 440.
24. Faucheux, Ci. (2009). La dynamique de groupe. *L'année psychologique*, 57 (2), 425- 440.
25. Ferréol, G. (2009). *Dictionnaire de sociologie*. Paris : Armand Collin.
26. Foulkes, S H. (1964- 2004). *Le groupe analyse*. Paris : Payot.
27. Garland, C. (2001). Le groupe traumatisé. In C. Graland (Eds.), *Comprendre le traumatisme. Une approche psychanalytique* (pp. 195- 210). Paris : Hublot.
28. Gosling, P et al. (2009). *Psychologie sociale, l'individu et le groupe* (2é èd). Paris : Bréal.
29. Gosling, P. (1996). *Psychologie sociale : l'individu et le groupe*. Paris : Bréal.
30. Grawitz, M. (2000). *Lexique des sciences sociales* (7é èd). Paris : Dalloz.
31. Guimon, J. (2001). *Introduction aux thérapies de groupe*. Paris : Masson.
32. Houzel, D. (2003). L'enveloppe psychique : concepts et propriétés. In D. Anzieu et al (Eds.), *Les enveloppes psychiques* (pp. 43- 73). Paris : Dunod.
33. Houzel, D. (2000). L'enveloppe psychique : métaphore et processus. In R. Kaes (Eds.), *Les voies de la psyché* (pp. 163-171). Paris : Dunod.
34. Ionescu, S., Jacquet, M-M., & Lhote, C. (2003). *Les mécanismes de défense. Théorie et clinique*. Paris : Nathan.
35. Kaes, R. (1993). *Le groupe et le sujet du groupe. Eléments pour une théorie psychanalytique des groupes*. Paris : Dunod.
36. Kaes, R. (1998). Appareil psychique groupal. In J P. Caillot (Eds.), vocabulaire *de psychanalyse groupale et familiale* (pp 21- 31). Paris : Collège de

sociale : textes fondamentaux anglais et américains (pp.498-519). Paris : Dunod.
54. Maisonneuve, J. (2000). Dynamique et analyse de groupe. In R. Kaes (Eds.), *Les voies de la psyché* (pp. 311-323). Paris : Dunod.
55. Maisonneuve, J. (2014). *La dynamique des groupes*. Paris : PUF.
56. Marc, E., & Bonnal, C. (2014). *Le groupe thérapeutique*. Paris : Dunod.
57. Mariette, J. (2010). *Introduction à la sociologie.* Paris : Le Manuscrit.
58. Michel, A. (2001). *Dynamique de groupe*. In A. Michel (Eds.), *dictionnaire de la psychanalyse*. Paris : Encyclopaedia universalis.
59. Montoussé, M., & Renouard, G. (2006). *100 fiches pour comprendre la sociologie*. Paris : Bréal.
60. Mucchielli, R. (2015). *La dynamique des groupes. Processus d'influence et de changement dans la vie* (23é èd). Paris : ESF.
61. Neri, C. (1997-2011). *Le groupe. Manuel de psychanalyse de groupe*. Paris : Dunod.
62. Paugam, S. (2010). *Les 100 mots de la sociologie.* Paris : P U F.
63. Pétard, J- P. (2007). *Psychologie sociale*. Paris : Bréal.
64. Pigott, C. (1998). Mentalité de groupe. In J-P. Caillot (Eds.), *Vocabulaire de psychanalyse groupale et familiale* (Tome 1) (pp.125-127). Paris : Collège psychanalyse groupale
65. Privat, P., Quélin- Souligoux, D., & Rouchy, J-C. (2001). De l'analyse de groupe à la psychothérapie. *EMC Psychiatrie*, 37-817-A-10.
66. Puget, J. (2000). Un parcours avec Didier Anzieu. In R. Kaes (Eds.), *Les voies de la psyché* (pp. 341-356). Paris : Dunod.
67. Robert, Ph. (2014). *Le groupe en psychologie clinique.* Paris : Armand Colin.
68. Rouchy, J- C. (2008). *Le groupe, espace analytique clinique et théorie* (2é èd). Paris : Erès.
69. Rouchy, J-C. (2009). De l'analyse de groupe. In F. Marty (Eds.), *Les grandes problématiques de la psychologie clinique* (pp.195-222). Paris : Dunod.
70. Sillamy, N. (1980). *Dictionnaire encyclopédique de psychologie*. Paris : Bordas.
71. Weil Barais, A., & Cupa, D. (2008). *100 fiches de psychologie.* Paris : Bréal.
psychanalyse groupale et familiale.
37. Kaes, R. (1998). Groupalité psychique, groupes internes. In J P. Caillot (Eds.), vocabulaire *de psychanalyse groupale et familiale* (pp. 65- 66). Paris : Collège de psychanalyse groupale et familiale.
38. Kaes, R. (1999). *Les théories psychanalytiques du groupe*. Paris : PUF.
39. Kaes, R. (1999). *Les théories psychanalytiques du groupe*. Paris : PUF.
40. Kaes, R. (2006). Clinique des groupes. In E.Séchaud (Eds.), *Psychologie clinique. Approche psychanalytique* (2 é èd) (pp.217-241). Paris : Dunod.
41. Kaes, R. (2010 a). Quelques reformulations métapsychologiques à partir de la pratique psychanalytique en situation de groupe. In M. Pichon., H. Vermorel., & L. Kaes (Eds.), *l'expérience du groupe ; approche de l'œuvre de René Kaes* (pp. 181- 206). Paris : Dunod.
42. Kaes, R. (2010 b). *La parole et le lien. Associativité et travail psychique dans les groupes* (3é èd). Paris : Dunod.
43. Kaes, R. (2010). Quelques reformulations métapsychologiques à partir de la pratique psychanalytique en situation de groupe. In M. Pichon., H. Vermorel., & L. Kaes (Eds.), *l'expérience du groupe ; approche de l'œuvre de René Kaes* (pp. 181- 206). Paris : Dunod.
44. Kaes, R. (2015). *L'extension de la psychanalyse pour une métapsychologie de troisième type.* Paris : Dunod.
45. Kaes, R. (2016). *L'idéologie. L'idéal, l'idée, l'idole.* Paris : Dunod.
46. Kipman, S- D. (2005). *Dictionnaire critique de psychiatrie et de santé mentale*. Paris : Doin.
47. Lagache, D. (1949- 2013). *L'unité et la psychologie*. Paris : PUF.
48. Laplanche, J., & Pontalis, J-B. (1994). *Vocabulaire de psychanalyse* (12 é èd). Paris : PUF.
49. *Le Petit Robert* (2016). Paris : Le Robert.
50. Lebaron, F. (2009). *La sociologie de A à Z.* Paris : Dunod.
51. Lecourt, E. (2008). *Introduction à l'analyse de groupe*, Paris : Eres.
52. Lewin, K. (1948). *Resolving social conflicts.* New York: Harper and Row Publischers.
53. Lewin, K. (1965). Décisions de groupe et changement social. In A. Lévy (Eds.), *Psychologie*